الطبيعة والنعمة
والزواج شريعة الله

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

الطبيعة والنعمة
والزواج شريعة الله

سؤالٌ عن الزواج كشريعة وضعها الخالق عندما خلق آدم وحواء وباركهما بطبيعة قادرة على الإنجاب؛ لأن الرب قال: "اثمروا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٢). والسؤال هو عن الفرق بين الزواج كشريعة إلهية، والزواج كسر كنسي؟

وصاحب السؤال من الجيل الذي لم ينل تعليماً لاهوتياً في كنيسة مصر، فهي ضحية التعليم المؤسسي الصادر عن مؤسسة، وهو ليس التعليم الكنسي الذي له ثوابت واضحة معروفة في الأسفار المقدسة (العهدين القديم والجديد)، وما سُلِّمَ إلينا من كتابات الآباء وقرارات المجامع المسكونية والمكانية، وما استقر في القانون الكنسي الذي يتفق مع التسليم الكنسي.

التعليم المؤسسي الصادر عن مؤسسة يقول لنا إن ما يُعرف باسم "الزواج المدني" هو زنى، وإن أي علاقة بين رجل وامرأة في زيجة حسب شريعة الخالق لا تكون الكنيسة طرفاً فيها هي زنى، ذلك؛ لأن المؤسسة تحرص على بقاء العبيد في طاعة تضمن تدفق الأموال ونمو السلطان الكهنوتي الذي تحول من خدمة ونعمة يمارَس من خلالها الثالوث القدوس تقديم هبات الدهر الآتي لأعضاء جسد الرب، إلى سلطان مستقل ذاتي يصول ويجول ما يشاء ليصدر "فتاوى شرعية" مثل اعتبار الزواج الذي لا يتم في الكنيسة زنى.

وقد واجهنا هذه المأساة من قبل، عندما صدر منشور من البابا الراحل وُزِّع على الأساقفة ولم يُنشر علناً. واعترض عليه قساوسة الكنيسة الإنجيلية، وبالتحديد: فايز فارس – صموئيل حبيب – لبيب مشرقي، وكان مضمون هذا المنشور أن زواج الإنجيليين هو زنى لأنه ليس "سراً كنسياً". وكتبت مقالين في مجلة الكنيسة الإنجيلية "الهدى" بعنوان "قدسية الزواج في الكنائس الإنجيلية والكاثوليكية"، وجرت محاكمة صورية في دير الأنبا بيشوي حضرها البابا الراحل – الأنبا يوأنس الراحل – الأنبا بيشوي – الأنبا باخوميوس، ولم يصدر قرار عن هذه الجلسة، بل ولا يوجد لدى البابا

الراحل ولا غيره أي وثيقة تتعلق بهذه المحاكمة، فقد حرص على أن لا يوثق شيئاً؛ لأن التوثيق –بالنسبة له–فضيحة كبرى؛ لأنه يمس زواج كل المصريين، بل وشعوب الأرض على اتساعها، ويعفي الأقباط الأرثوذكس فقط من الزنى.

وسؤال الأخ أشرف يعيدنا إلى ذات المربع الأول، وهو تلك الدائرة التي تحرص عليها المؤسسة الدينية، لا الكنيسة التي لديها لاهوت وتاريخ كنسي، على أن تبقى مغلقة على أصحاب الفتاوى، وهي تقسيم الكون إلى مقدس وغير مقدس، والمقدس هم ما يتم في الكنيسة، وغير المقدس، أي النجس، هو ما يتم خارج الكنيسة. وهو عودة إلى ذات الحوار الساخن الذي دار في القرون الأربعة الأولى، وبالذات بين الغنوسية وشيعة المانويين من جانب، والكنيسة الجامعة من جانب آخر، وهو أحد أسباب كتابة كتاب الرد على الهرطقات، وهو أول مؤلف لاهوتي للمعلم الكنسي ايريناوس (حوالي سنة ٢٠٠)، وتبعه بعض الآباء مثل اكليمنضس السكندري وغيره، في حوار حول خليقة الله التي هي بالطبيعة طاهرة ولا يدنسها إلا الشر النابع من قلب الإنسان.

وقد تصدى معلِّم الحياة نفسه لكل ممارسات التطهيرات التي أشار إليها إصحاح كامل في إنجيل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، أي إنجيل مرقس مؤسسها، في الاغتسال وقواعد التطهير، ليضع الرب نفسه قاعدة التمييز: "كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه لأنه لا يدخل إلى قلبه" (مرقس ٧: ١٨)، ولكن "الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشرير، زنى فسق قتل. سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان" (١٨: ٢٠-٢١). ولعل الحكم القاطع في نفس السياق هو عبارة الرب نفسه: "رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم" (مرقس ١٨: ١٩)، هو حكمٌ على مؤسسة الفريسيين، وعلى كل الذين يمسكون "بتقليد الشيوخ" الخاصة بأشياء كثيرة تسلموها للتمسك بها (مرقس ٧: ٤).

وحتى بطرس تلميذ الرب، رغم نواله نعمة الروح القدس في يوم العنصرة، إلَّا أنه كان لا زال يهودياً في نظرته للآخرين، فقد كان يتمسك بالطعام الطاهر والطعام

النجس حسب شريعة موسى، وعندما جاع لأنه كان صائماً ورأى السماء مفتوحة وإناءً نازلاً مثل ملاءة فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء، وصار إليه صوت قم يا بطرس اذبح وكل"، وكان رد بطرس: "كلا يا رب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً"، ثم سمع ثلاث مرات ذات الصوت السمائي يقول له "ما طهره الله لا تدنسه أنت" (أع ١٠: ١٠-١٦). ومع أن الرؤيا كانت خاصة بالطعام -حسب شريعة موسى- إلَّا أنها كانت دعوة لبطرس لأن يعمِّد كرنيليوس (أع ١٠: ١٧)، ورغم ذلك عندما ذهب إلى إنطاكية حيث كانت الجماعة المسيحية مكونة من يهود وأمم وجاء عدد من اليهود من أورشليم، بدأ بطرس يأكل مع اليهود. وحسب الشرح الدقيق لعبارة الرسول في (غلاطية ٢: ١٢-١٣) كان بطرس قد امتنع عن شركة الأمم في عشاء الرب: "كان يؤخر نفسه ويفرز نفسه"، والعبارة لا يمكن أن تكون خاصة بالطعام العادي، ولذلك كتب بولس الحار بالروح: "ولما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل" (٢: ١٣)، فقاومه بولس وعاد بطرس إلى الإيمان مرة ثالثة.

أعود فأكرر ما سبق ونشر على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية عن "تطور النظرة إلى التطهيرات" وغيرها. إن ما جعله الله نفسه شريعةً طبيعيةً، عاد العهد الجديد وأكَّدها بقوةٍ؛ لأن الكلمة اللوغوس هو خالق كل الأشياء، وبدقة يقول رسول الرب: "فإنه فيه (الابن) خلق الكل:

- ما في السموات
- وما على الأرض
- ما يُرى وما لا يُرى
- الكل به
- وله قد خُلق...
- وفيه كل شيء يقوم (يبقى) كولوسي ١: ١٥-١٧.

فهو، الابن له المجد "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣)، ونحن نعرف أن ما دوَّنه رسول الرب بولس ظلَّ سارياً طوال عصور الكنيسة، وهو الزواج

لدى السلطات المدنية، ثم الذهاب بعد ذلك إلى الكنيسة لكي تشترك الكنيسة كلها في خدمة وتقديم العون والدعم والصلاة، وهو ما صار بعد ذلك يُعرف باسم "صلاة الإكليل".

لم نعثر في كل وثائق التاريخ القبطي حتى العصر الحديث عن وثيقة واحدة تؤكد لنا أن الزواج سِرٌ كنسي. وما وصلنا من صلوات في برديات الدير البيض وطقوس القرون الثالث عشر والثاني عشر لا تذكر سر الزيجة، وإنما عندما ساد التعليم بالأسرار السبعة، حُسِبَت الزيجة واحداً من الأسرار السبعة، وهو تحديد شرعي وقانوني عُرف في الغرب، وقننه مجمع ترنت في القرن السادس عشر، لا قبل ذلك.

لم يكن الزواج سراً في العهد القديم كله: فهل كان هذا زنى؟ وعندما يذكر رسول المسيح الزواج المختلط بين مسيحي وامرأة غير مسيحية، فهل وصف الرسول هذه العلاقة بانها زنى "إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا يتركها المرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه"؟ ولعل صوت المؤسسة يسكت أمام شهادة الكنسية: "الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل" (١كو ٧: ١٢-١٤)، والتقديس هنا هو بقاء هذه العلاقة في إطار ما أسسه الله نفسه من تخصيص والتزام ومحبة؛ لأن أحد معاني كلمة تقديس = تخصيص.

لماذا اذن لدينا صلوات للزيجة؟

والجواب هو أن الطبيعة مقدسة، وشريعة الله طاهرة، ولكن ما يتم في الكنيسة هو دعوة ما هو مقدس حسب الطبيعة إلى شركة في حياة الثالوث وشركة في حياة الجسد الواحد، ليس لأن الطبيعة التي خلقها الله القدوس في حاجة إلى تقديس، بل لأن الطبيعة وشريعة الله تدخل إلى دائرة استعلان الثالوث التي تضع كل كيان إنساني في مجال الشركة الإلهية، ولذلك السبب كان رشم العروسين، بل تقديم جسد الرب ودمه لهما في صلاة الإكليل هو دعوة الثالوث للدخول إلى مجال النعمة الأبدية. هنا يصبح الزواج ممارسة لشريعة الله التي نالت شركة في الثالوث.

أمَّا الإدعاء بأن الذين يتزوجون خارج الكنيسة هم زناة، فهي دعوة تكفير على طريقة جماعات الإرهاب المسلح التي تفزر من معها ومن ضدها حسب إيمانها الأعوج.

إذن، هل الزيجة سر كنسي؟

والجواب حسب التسليم، أن كل ما يدخل مجال النعمة الإلهية من مخلوقات، هو سِرٌّ مثل تقديس المياه، تقديس الميرون، رشم الصليب، تكريس مباني الكنائس وأواني الخدمة، ثم الخدمات الإلهية التي يُستعلَن فيها الثالوث: المعمودية، الميرون، الإفخارستيا، مسحة المرضى، الرسامات، الزيجة، ثم سر تطهير النفس بالروح القدس الذي تحول تحت وطأة ضغط لاهوت العصر الوسيط إلى "سر التوبة والاعتراف"؛ لأنه سر استعادة قوة المعمودية واستنارة النفس التي وُهِبَت في مسحة الميرون الإلهية والشركة في الثالوث. ولكن حصار العصر الوسيط واستعارة مصطلحات لاهوت الغرب الكاثوليكي أفقدتنا النظرة السرية *Mystical* التي كانت القوة الحقيقية التي ولدت لنا أنطونيوس الكبير وأثناسيوس الرسولي وغيرهم.

ليت قوافل الجهل التي لا تجيد إلَّا الصراخ، تصمت وتترك المجال لدراسات أمينة صادقة لاستعادة التعليم عن السر الكنسي في مجاله الإلهي، حيث يشرق الثالوث بالتبني – غفران الخطايا – شفاء النفس والجسد، والأهم هو انسكاب روح الآب، روح المحبة (رو ٥: ٥) فينا لكي يجدد كياننا.

ملاحظة هامة:

الزواج المدني هو مصطلح غربي وُلِدَ في الغرب بعد انهيار سلطان الكنيسة الكاثوليكية الذي بدأ في التراجع تحت ضغط حركة الإصلاح، ثم حركة التنوير، ولا يوجد –تاريخياً– زواج مدني وآخر كنسي، بل زواج حسب شريعة الخالق، وزواج حسب النعمة.

عندما شرح الأب متى المسكين سر غسل الأرجل، قامت الدنيا ولم تقعد؛

لأن قوافل الجهل أسرى الأسرار السبعة، اعتقدوا أنه أضاف سراً جديداً، وبالتالي أفقد الرقم ٧ بريقه ورمزيته، في حين أنهم لو دققوا في الصلوات الليتورجية لتحققوا من أنه سِرٌّ، ولكن صرخات العصر الوسيط غلبت التعليم الكنسي المودع في صلوات الليتورجية.

حفظ الله الثالوث أُم الشهداء من صراخ صوت المؤسسة، وأعاد إلينا صوت وشهادة وجمال الأرثوذكسية.

د. جورج حبيب بباوي